الأدب بين الحرية المطلقة والالتزام بالقيم التربوية الإسلامية

د.عبد القادر هني.

عميد كلية الآداب واللغات -جامعة الجزائر-

ليس أنسب في تقديرنا عند إثارة موضوع كالذي نحن فيه من أن نذكر ببعض ما جاء في الذكر الحكيم وفي الحديث النبوي الشريف، مما يعد مرجعا مهما لأي سلوك إنساني في أمة تأبى أن تلقي بهذين المصدرين وراء ظهرها بدعوى أن وقتهما قد ولى، وفي هذا السياق الذي اخترنا أن ندخل منه إلى موضوعنا يقول المولىﷻفي معرض الثناء على رسوله الذي بعثه رحمة للعالمين: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾[1]، ونحن إذا رجعنا إلى كتاب الله الذي أنزل أساسا لإنقاذ البشرية من التيه والضلال وانتشالها من الفرقة التي تردت فيها،وجدنا فيه إلحاحا شديدا على حسن الخلق، ونهيا شديدا أيضا عن الأخلاق الفاسدة والسلوكات الهابطة ما ظهر منها وما بطن، لما لذلك من عواقب غير محمودة على الفرد والمجتمع على حدّ سواء، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة النحل:﴿ إن الله يأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[2].

ويتوعد جلّت قدرته توعدا شديدا أولئك الذين يعلمون على نشر الرذائل والمفاسد بين الناس فيقول في سورة النور:﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[3]، ويحذر في سورة الأحزاب نساء النبي من الفعل الخبيث ويحثهن على العمل الصالح بمثل قوله:﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها واعتدنا لها رزقا كريما ﴾[4].

والأخلاق المبذولة المتعارضة مع الفطرة الإنسانية منهيّ على سواء أكانت أفعالا أم أقوالا، ظاهرة أم باطنة يأتيها المرء في خفية وتستر، من ثم كان التحذير من ارتكابها والحث على تجنبها شاملا لكليهما، قال تعالى:﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[5]، وقال أيضا في سورة

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الأعراف:﴿ قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعملون﴾ [6] **من هنا كان تذكير المولى ﷻ الإنسان بأنه قريب منه في كل لحظة وأنه يعلم خفي أفعاله وظاهرها وما توسوس به نفسه، فقد قال في سورة(ق)**:﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [7].

وقال على لسان إبراهيم عليه السلام:﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [8].

وثمة آيات كثيرة أخرى غير هذه تؤكد هذه المعاني وتحث على حسن الخلق وعلى اجتناب السيء من الأفعال والأقوال.

ولإمام البشرية ومعلمها الأول الرسول عليه الصلاة والسلام أحاديث تندرج في هذا الاتجاه الهادف إلى إعداد الإنسان إعدادا صحيحا وصولا إلى تكوين مجتمع سليم من الآفات بريء من الأمراض والأزمات وأصناف العلل التي تفتك بالبشرية اليوم، بسبب انحرافها عن شرعها للهو تهاونها في الاهتداء بهدي رسوله الكريم الذي أرسل ليرشد البشرية إلى الحق الذي ضلت سبيله وليقوم معوج عودها، وسأكتفي في هذا المقام بعدد قليل من أحاديثه ﷺ تجنبا للتطويل، فقد قال عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[9]، وحرصا على التمكين للأخلاق الحسنة في الأسرة التي هي نواة المجتمع لا يمكن أن يصلح إلا بصلاحها، فإنه عليه السلام أكّد تأكيدا شديدا على عنصري الإيمان والأخلاق الفاضلة في اختيار الزوجين بعضهما لبعض، فقال:﴿ إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته – وخلقه– فزوجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ [10]،وقال أيضا:﴿ تنكح المرأة لأربع: لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك﴾ [11].

وجعل الدين الأصل في اختيار الزوجة يتضمن مراعاة حسن أخلاقها وتربيتها، ذلك لأن الحديث عن التربية والأخلاق بعيدا عن الدين كلام لا معنى له من المنظور الإسلامي.

والحقيقة أن سيرة رسول الله كلها قدوة حسنة للخلق الطيب الذي ينبغي أن يقتدي بها المسلم في حياته، عملا بقوله جل جلاله:﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [12].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعد هذه التوطئة التي لم نقصد بها تفصيل القول وتشقيق الكلام في موضوع الأخلاق الإسلامية، نقول: إنه يستحيل أن يصل المجتمع إلى صورته المثلى التي نستشفها من قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[13]، إذا لم تتحول القيم والمبادئ الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم وجسدها الرسولﷺ في سيرته العطرة إلى واقع ملموس في سلوك الأفراد، ثم إنه إذا كان الأدب سلوكا إنسانيا سقط قالب لغوي، فإنه يستحيل أيضا أن يغدو هذا السلوك إنسانيا إيجابيا مثمرا إن لم يرتبط ارتباطا لا انفصام له بمنظومة القيم التربوية الإسلامية، وحينئذ فقط يمكن التحدث عن الأثر الإيجابي للأدب في بناء المجتمع.

وقد يقول القائل: ما شأن الأدب وبناء المجتمع؟ أليس الأدب مجرد وسيلة لتجزية الوقت وملء الفراغ حين لا يجد الإنسان ما يشغل به نفسه من أضرب النشاطات المادية النافعة؟.

إن مجانية الأدب التي تحدد موقعه في أدنى درجات سلم النشاط الإنساني فكرة لا يحتاج المرء إلى كبير جهد لإثبات خطئها وبعدها عن الحق، ذلك لأن تاريخ الإنسانية يشهد بما للأدب من دور خطير في ترشيد الأمم وتبصيرها بإمكاناتها وتوعيتها بموقعها في سلم التمدن حتى تهب لتنفي عن نفسها الكسل والخمول، وتسعى إلى بلوغ المكانة التي تجلب لها احترام وتقدير الأمم الأخرى، لذلك لا ترى بين المجتمع من ينظر إلى الأدب والأدباء بعين الزراية والتحقير أو يعدهم من سقط المتاع في الأمة دون تمييز بين الصالح والطالح مما ينتجون، وإذا خامرك شك في هذه الحقيقة فانظر إلى ما تنفقه هذه الأمم من الأموال فينشر المؤلفات الأدبية إبداعية كانت أم دراسية، والتفت أيضا إلى ما تبذله من جهود لتهيئة ظروف العمل المناسبة لأهل هذا الاختصاص، وما ذاك إلاّ لأنها تدرك إدراكا عميقا خطورة رسالة الأدب في المجتمع.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا في هذا المساق هو: ما نوع الأدب الذي يستحق مثل هذه العناية في مجتمعاتنا الإسلامية؟ بعبارة أخرى، هل كل ما ينتج من كتابات أدبية عندنا يمكنه أن يقدم خدمات إيجابية للمجتمع ويسهم في بنائه بناء صحيحا وصحيا بإيقاظ الوعي في النفوس وتبصير الإنسان بمركزه في الكون وبرسالته فيه وبما يختزنه من طاقات ذاتية هائلة لا بد من تسخيرها في تحسين أحواله وتطوير واقعه تطويرا يليق بالمنزلة التي كرّم بها دون سواه من الكائنات في هذا الوجود.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن الأدب الذي يمكنه أن ينهض بهذه العظيمة في المجتمع الإسلامي هو –في تقديرنا– ذاك الذي يهدف فيه مبدعه إلى ترسيخ القيم والمبادئ والأفكار الإسلامية في نفوس الأفراد، لتتحول الثروة التربوية التي انعم بها علينا الإسلام إلى سلوك وممارسات في الحياة الواقعية، بدل أن تبقى أفكارا مجردة تلوكها الألسنة صباح مساء دون أن تتحول إلى أساس ننطلق منه في تفكيرنا وفي تعاملنا مع أنفسنا ومع غيرنا من الأحياء والأشياء المحيطة بنا، فالأدباء بما وهبهم المولى ﷻ من ملكات فنية عظيمة وقدرات متميزة على التوظيف الكلمة توظيفا فنيا مؤثرا، يمكنهم أن يستثمروا هذا الرصيد من القيم والمبادئ والتصورات الإسلامية في ترشيد الناس، وإصلاح الانحرافات الواقعة في سلوكهم وتصوراتهم، بتثبيت العقيدة الصحيحة في نفوسهم وإذكاء نور الإيمان فيها، لأن إصلاح الباطن هو أساس إصلاح الظاهر، والتغيير المثمر إنما ينبعث من تغيير ما في النفس والفكر، مصداقا لقوله تعالى:﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [14]، نقول هذا لأننا نعتقد اعتقادا جازما أن أزمتنا اليوم أزمة أخلاقية أكثر منها أزمة مادية وواقعنا الراهن المثقل بمآس مصدرها ضعف الوازع الديني والخلقي يقدم لنا أكثر من دليل على صواب هذا الاعتقاد، ويبين لمن يتأمله في أناة وترو التي وقع فيها مجتمعنا منذ أن تراخت أيدي الناس عن حبل الله المتين.

لكن ربط الأدب بالقيم والمبادئ الإسلامية قدير فيه البعض تضيقا على المبدعين وحجرا عليهم واغتصابا لحريتهم، الأمر الذي ينعكس سلبا على العملية الإبداعية نفسها على تقديرهم.

إذا كنا لا نخالف أصحاب هذا الرأي في أن الحرية هي عصب العملية الإبداعية وشريان الحياة فيها، فإن السؤال الذي نطرحه في هذا المجال هو: ما نوع الحرية التي يتطلبها الإبداع الفني؟ وهل تعني حرية المبدع أن يطلق الشاعر أو الكاتب العنان لعواطفه وغرائزه دون التقيد بأي معيار عقدي أو أخلاقي بدعوى أن المتعة في الفن هي الغاية القصوى التي ينشدها الفنان كما يذهب إلى ذلك عدد من المبدعين والنقاد الذين يرون المنفعة سواء أكانت أخلاقية أم غير أخلاقية مقطوعة الصلة وخارجة عن طبيعته؟[15].

الحقيقة أن هذا المفهوم للحرية في الأدب وجد عند الغربيين أنفسهم من يقاومه ويخالفه مخالفة شديدة، إيمانا من هذه الفئة من المهتمين بالأدب والفن بأن القول بالفائدة أخلاقية والتربوية في هذا المجال من النشاط الإنساني لا يقتل الأدب والفن بالضرورة ف (فليب سيدني) مثلا في كتابه:"دفاع عن الشعر" يوي أن الشعر محاكاة هادفة وأن الشاعر يهدف إلى الخلق عالم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أفضل من العالم الذي نعيش فيه، ويرد على الموقف الديني المعادي للشعر مبينا أن الشعر غير مدمر للأخلاق بل هو داعية لها وأنه يثري العقل الإنساني فيمكنه من إدراك الحقيقة والتصرف وفقا لمقتضياتها، وقد تأثر بهذا الموقف الذي يرين الشعر الذي لا هدف له ولا فائدة منه لا قيمة له كل من شيلي وماثيو أرنولد وغيرهما[16].

وفي هذا السياق نقول بدورنا إن الأخذ بالمفهوم المطلق للحرية في الأدب هو المسؤول –إلى حدّ كبير– عن إشاعة التبذل والخلاعة والمجون في الآثار الأدبية، حتى لتخجل من نفسك وأن تقرأ بعض الأعمال التي يندفع أصحابها اندفاعا –باسم حرية المبدع في الإفصاح عن خوالجه– لرسم مشاهد مخلة بالحياء، وهي مشاهد إلى عالم البهائم والسوائم أقرب منها إلى عالم الإنسان الذي استخلفه الله وفضله على كثير مما خلق تفضيلا.

وإذا حاورت أحد أنصار هذا المفهوم للحرية الأدبية رأيته يسعى بكل جهده أربى إقناعك بأن غايته نظيفة وهدفه تحرير أفراد المجتمع مما يعلنونه من عقد في عزمه –وأنه يطمح إلى تربية الأجيال الصاعدة وفق ما تتطلبها لحياة المعاصرة من وعي وتفتح على الآخرين ونبذ للجمود والانغلاق على التصورات القديمة للحياة، على أساس أن تلك التصورات قد عفي عليها الزمن وأنها بنت الماضي الذي تجب محاربته بكل الوسائل لأنه يقيدنا ويشدنا إلى الوراء ويحول بيننا وبين أن نعيش الحاضر ونعب متعه عبا، لكنك إذا تأملت كلامه بقليل من الإمعان تبينت أن مفهومه للمعاصرة والتحرر من الجمود وتطوير الوعي والانعتاق من الماضي و....و....وتصبّ كلها في مجرى واحد وهو التحرر من كل ماهو ديني أخلاقي، أي مما يطلقون عليه في معجمهم اسم (التابو) أو (المحرم)، وهذا أحد أنصار هذا المفهوم الغريب للحرية في الأدب يقول: "فإذا عالج الأديب موضوع الحب فهو المفهوم لا يقنع لما هو مألوف من العلاقات الجنسية بل يسمو بها إلى ما هو أرقى من المألوف،فإذا ما احتاج في ذلك إلى الصراحة تامة فيجب أن يمنح هذا الحق، إن للأديب قيدا واحدا فقط يتقيد به هو إخلاصه في عمله وله الحق، ما داما مخلصا أن ينال هذه الحرية في أن يبحث بصراحة كاملة جميع مسائل الجنس كما يبحث العالم مسائل الغازات السامة مثلا، وليس في الأدب كله ضرر نشأ من الصراحة يساوي أو يقارب من الضرر الذي نشأ من الغازات السامة[17]، وبالمقابل فإن كل إنسان في نظر هؤلاء الإباحيين الشهوانيين يدعو في كتاباته إلى الالتزام بالأخلاق الإسلامية، فهو متخلف رجعي ظلامي!.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهنا نتساءل من الرجعي أو الظلامي أولئك الذين يدعون إلى احترام الإنسان والفطرة التي فطره الله عليها أم أولئك الذين يدعونه إلى مخالفة هذه الفطرة وإتيان كل ما يجعل الفرق بينه الدواب غير العاقلة محل سؤال جديد؟ وإذا تصفحنا أدبنا العربي الحديث، فإننا نلقى فيه نماذج كثيرة من الكتابات التي تروج للميوعة والفساد وشيوع الفوضى الأخلاقية في المجتمع، كل ذلك باسم المعاصرة والحرية في الأدب والفن،ولا أكلفك أخي القارئ عناء استعراض الإنتاج الأدبي العربي الحديث كله من شعر وقصة ورواية، لتقف على الحقيقة التي تهتز لها الضمائر الحية من أسها في مجتمعات تدين بالإسلام، إنما أحيلك على رفوف مكتباتنا في الجزائر لمسلمة لترى صورة مقززة لهذا الأدب الذي سينبو عنه ذوقك وتستحي من نفسك وأنت تقرأه، وستلاحظ أن نماذجه مع أنها متردية أخلاقيا مطبوعة طبعات أنيقة تغري بالقراءة وتفتح الشهية إليها، هذا على الرغم من ضررها الأكيد لا سيما في أوساط الناشئة من أبنائنا المرشحين أكثر من سواهم للتأثر السلبي بهذا الأدب، بالنظر إلى حساسية المرحلة التي يكونون فيها تحت الضغط المركز لأهوائهم وغرائزهم، ويمكننا أن نغزز رأينا في نبوّ الذوق عن هذا الصنف من النصوص الأدبية بما كتبه ناقد جزائري واعد عن رواية من الأدب الجزائري نحا فيها صاحبها هذا المنحى الشاذ عن القيم الأصلية في مجتمعنا، فقد قال الناقد الشاب بعد أن أبرز ما في الرواية من سقوط لغوي: "أما الزلة الثانية التي انتبه إليها كثير من القراء العاديين وغير العاديين، فهي هذا الافتعال الجنسي الواضح والقبيح ... وكأني بالروائي أراد أن يكسر نمطية الرواية الجزائرية ليدخلها –وأدخلها من قبل– في نطاق ما يعرف بـ (الثورة على المحرمات) أو (الطابور) [18].

وقد هال صاحب هذا الكلام ما رآه في العمل الروائي من تجاوز فاضح لحدود الحشمة والوقار من جرأة وقحة لا حدّ لها على قيم المجتمع الجزائري المسلم فقال: "وقد حزّ في نفسي صمت أدبائنا الملتزمين أمام هذه النصوص الشاذة التي لا يستحي أصحابها من تقديمها إلى القارئ الجزائري المسكين المغبون وبأغلى الأثمان،كذلك كذاك لما بصمت عبد الله التركيبي.. أبو القاسم سعد الله.. الأخضر السائحي.. مصطفى الغماري..و..، ولماذا لا ننتفض جميعا أمام هذه الرداءة حتى يتضح للناس الأدب من الكذب والأصالة من العمالة والزبالة ؟[19].

ولا يغرانك أخي القارئ ما تراه من اعتماد أدباء هذا الاتجاه العربية أداة للتعبير في كتاباتهم،فاستخدام لغة القرآن أداة للتوصيل في هذا المجال استخدام غير بريء، فهو يدخل ضمن منهجيتهم في الإجهاز على كل ما هو عربي إسلامي مما يشكل الآنية المميزة لهذا المجتمع الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أرادوا تحويله إلى المجتمع حيواني مادي صرف، يستجيب استجابة تلقائية غير عقلانية لنداء الغريزة النوعية، والأدلة على ما نقول متوفرة،فأنت إذا تأملت العربية التي يكتب بها عدد جمّ من هؤلاء، رأيت البذاءة تطغى عليها طغيانا رهيبا، متذرعين في ذلك بالواقعية في اللغة وفي التصوير، كأن البذاءة اللغوية هي الظاهرة المميزة لوقعنا الاجتماعي، ثم إنك تلحظ في هذه الكتابات مؤامرة خبيثة لتفجير بنية هذه اللغة، لا لغرض الإسهام في تجديدها وإثرها، وإنما لتهجينها وتغريبها عن أهلها.

إن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أعداء القيم النظيفة ودعاة الحرية الجنسية في الأدب وفي الحياة أيضا، يعلمون حق العلم أن جمال الشكل وحده لا يصنع أدبا وأن القصيدة أو القصة أو الرواية لا تقرأ لما فيها من فن فحسب، إنما يبتغي القارئ فيها شيئا أسمى من ذلك وأجل وهو هذا الذي يصاغ في شكل فني جميل، لذلك صحّ القول: إن المبدع حين يتكلم أو يكتب فإنه لا يتكلم ولا يكتب لنفسه فقط، وتأثير فنه سواء أكان واعيا بذلك أم لم يكن يكون كبيرا في المتلقين، لأن سحر الكلمة الفنية ليس بالأمر الهيّن على النفوس، لا سيما إذا رزق أصحابها وعيا جماليا طيبا وذائقة فنية راقية وسر ذلك كما يرى بعض نقاد ألف هو أن الآثار الفنية ليست مرآة ذات المبدع الخالصة "بل مرآتها في علاقاته الاجتماعية، في واقعها ومثالها الأعلى، طورا قبولا ومشاركة وطورا رفضا ومخالفة"[20].

إن هذا الكلام يؤكد ما قلناه آنفا من أن تأثير الفن –بما فيه الأدب– ليس بشكله فحسب بل مضمونه أيضا فأي انحراف في هذا المضمون تظهر آثاره في المتلقين، من هذا المنطلق فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إدراكا منه لخطورة الأدب وعمق تأثيره في النفس، ألمح إلى الرسالة السامية للشعر وإلى الدور الذي يمكن أن ينهض به في بناء الإنسانية السامية للشعر وإلى الدور الذي يمكن أن ينهض به في بناء الذات الإنسانية على الأخلاق الإسلامية حين يوظف توظيفا إيجابيا فقال في حدّ الشعر: "الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها"[21].

إن سلّ الضغائن من النفوس يترتب عنه منغير شك تحقيق المحبة والأخوة والوئام بين الأفراد المجتمع وتوحيد صفوفهم ليحيوا متوادين متراحمين متضامنين في السراء والضرّاء، وتربية المسلمين على هذا النمط من الحياة كان من غايات الإسلام الأولى، فقد قال المولىﷻ:﴿إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخويكم واتقوا الله ترحمون ﴾[22] فإذا أدركنا أن (إنما) جاءت هنا للحصر، كان معنى الآية أن المؤمنين لا يكونون كذلك إلاّ إذا كانوا متآخين تجمعهم رابطة الإيمان، فلا ينبغي أن تكون عداوة أو شحناء مهما تكن الأسباب فالمؤمنون والمؤمنات: "بعضهم أولياء بعض" كما يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الحجرات:﴿ ولمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا﴾ كما قال رسول البشرية وهاديها إلى الحق والخير.

فارتبط الأدب –شعره ونثره– بالمنهج التربوي الإسلامي على النحو الذي أومأ إليه الرسول ﷺ ستكون نتائجه مثمرة: إذا يصبح من أهم أدوات البناء في المجتمع، لأن التأليف بين القلوب وتقوية الوشائج بين الناس بتربية الفرد ليعيش بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه وجودا بغيرها، يعد الدعامة الأولى –بعد الإيمان بالله ورسوله– لأي عمل صالح بناء يعود بالخير والنفع على الأمة كافة، لذلك نبهنا المولى جلت قدرته إلى أهمية التآخي فيما بيننا فقال:﴿ وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز الحكيم﴾[23].

ومن هذا المنطلق نفسه كان استحسان الرسول الكريم الشعر الذي يطمح من القيم التربوية الإسلامية ونبذه ما يضادها ويتعارض مع روحها،فقد قال ﷺ في تعريف الشعر: "الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"[24].

إن الشعر الذي يرتضيه الرسولﷺ هو ما توافق مع الحق،والحق كلمة جامعة لكل ما هو خير، ولكل ما توافق مع المنهج التربوي الرباني الكفيل وحده بصناعة وصياغة الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أما ماخرج عن إطار القيم والمبادئ والتصورات الإسلامية، كالأدب المكشوف وما يفرق الأمة ويشتتها ويصدّع بنيانها، فإنه ردّ من المنظور الإسلامي، ويصنف في الخبيث من الكلام حسب قول رسول الله: "إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب"[25].

وعيار الحكم بخبثه هو آثار المدمرة للنفوس والمثيرة للبلبلة والفوضى الأخلاقية بين الناس: بسبب الحرية الأدبية غير المسؤولة.

ولما كانت مهمة الأدب –كما نعتقد– يجب أن تتجه إلى إصلاح النفوس وتقويم معوجها وإعدادها إعدادا يكفل لها العزة وإباء الذل والصغار والرغبة عن كل ما ينزلق بها عن إنسانيتها، فإنه يجب في أدب هذه غايته أن تكون منطلقات مبدعية وتصوراتهم وفلسفتهم في الحياة إسلامية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا شرقية ولا غربية والذي ينبغي أن ننبه عليه هنا هو أن الدعوة إلى العودة أدبنا إلى تبني الرؤية الإسلامية الصحيحة في معالجته مختلف القضايا والمشكلات التي تؤرق الإنسان في وجوده المادي والروحي لا تحمل في أطوائها أي نداء إلى التوقيع على الذات ورفض الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى حين لا تتعارض العناصر المستعارة مع روح المنهج التربوي الإسلامي الذي يتميز عن المناهج الوضعية بعمقه وشموليته في تناول المشكلات التي تؤرق الفرد والجماعة، بمعنى أن الإفادة من الغير في هذا المضمار ينبغي أن تسيّج بحذر شديد حتى لا يقع الأخذ على كل من هبّ ودبّ مما يتجه الآخرون من فكر وحضارة، بحجة الانفتاح على التجارب الإنسانية، فالانفتاح وإن كان مشروعا في حدّ ذاته، فإنه لابد من الاحتياط فيه حتى ر يتحول من وسيلة إثراء إلى أداة مسخ وتشويه لمقوماتنا وأصالتنا، بما يتسرب عبره من عناصر هدامة كما حدث قديما مع انفتاح المسلمين على الحضارات الأمم الأخرى لا سيما الفارسية، وتكرر حديثا مع اتصال العرب بالغرب في إطار السعي إلى نهوض بالأمة من كبوتها وبعثها من مرقدها.

وإذا كان المجال لا يتسع في هذه العجالة لرصد العناصر السلبية التي رافقت انفتاح الأدب العربي قديما وحديثا على ثقافات أهدافها غير أهداف الثقافة الإسلامية، ومنطلقاتها الفكرية والفلسفية غير منطلقاتها.

إذا كان المجال كما قلت لا يسمح بالاستقصاء والتفصيل، فإنها بد أن نذكر بأن الأخذ العشوائي لكل ما أنتجته الأمم الأخرى دون غربلة وتمحيص يعد من العوامل الأولى في التمكين للانحلال والانحراف في أدبنا العربي بل في مجتمعنا الإسلامي نفسه، فاستفحل خطر التيار الإباحي فيه على المستوى الفكري والأخلاقي فأحس الإنسان في بعض الأوساط منه أنه إله نفسه وأنه ليس بحاجة إلى هداية هاد، ورسخ لديه أن كل ما يعني به في هذه الدنيا هو رغباته وأهواؤه، وأنه حرّ طليق في أن يسلك لتحقيقها كل ما عنّ له من الأساليب والوسائل، فكان حصاد هذه الحرية اللامحدودة المستوردة تقويض العمد التي أقيم عليها المجتمع الإسلامي، فانفسح فيه المجال لألوان من الآفات والشرور التي كانت وراء انفراط عقده المنظوم وانحرافه عن جادة الرشد والحق، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تنطفئ جذوة تألقه على جميع الصعد، ويلحق غرس المسلمين الأول الذبول ثماره وتتساقط قبل اكتمال نضجها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولمن أراد أن يقف على صورة هذا التدهور الذي أصاب المجتمع الإسلامي وعلى الانتكاسة التي عرفها الأدب في هذا المجتمع عليه أن يعود إلى شعر أمثال الحسين بن الضحاك وحماد عجرد وأبي نواس وبشار بن برد وابن الحجاج وغيرهم كثير.

أما حديثا فإن وضعنا الاجتماعي الذي لا نحسد عليه وما تزدحم به المكتبات به في كثير من البلاد العربية من آثار أدبية تمعن إمعانا شديدا في تكريس البطالة وتتبذل والتهتك وتشجع المؤولات المنحرفة البالغة الشذوذ باسم المعصرة وحرية الأديب في التحدث عما يعن به وبالكيفية التي يختارها وإن تعارضت مع الذوق والحياء، إن ذلك كله يرفع الحجب عن الصورة النهائية التي سيكون عليها مجتمعنا الحديث إن لم نتدارد الوضع باستلهام فلسفة تفكيرنا وقيمنا التربوية وتصوراتنا في نشاطاتنا الأدبية وغير الأدبية من القرآن الكريم ومن سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ذلك لأن الآثار السلبية للأدب المروج للفساد والمضاد لكل ماله صلة بالإسلام هينة – كما قد نتصور– في مجتمعنا المعاصر.

فقد لا نعدو الصواب إن ذهبنا إلى أن هذا الأدب مسؤول عن كثير من الصور السلوكية الشاذة التي أضحت وكأنها شيء طبيعي في تصرفات الأفراد، بينما أصبح الطبيعي من السلوك الذي يتمشى مع الفطرة ويتناغم مع التوجيهات التربوية القرآنية غريبا أو كالغريب، والأمر الذي ينذر بخطر أكبر أن دائرة هذا الأدب الخليع قد اتسعت ويسرّت لها سبل الوصول إلى أكبر عدد من الناس من مختلف الأعمار، وذلك باستخدامه في الغناء وفي السينما وفي غيرهما من المجالات القادرة على التأثير في أكبر شريحة ممكنة من المجتمع، وهذا أمر ما كان ليحدث لو كنّا حريصين حقا على البناء لا على الهدم أو كنا مخلصين في أداء واجباتنا على الوجه الذي أمر به الكتاب المنزل لإنقاذ الإنسان من التيه والضلال.

ولولا ما في هذا الأدب الشديد الضرر والخطر على المجتمع من تبذل وفحش صريح، لأوردنا منه نصوصا يقف القارئ من خلالها على حقيقة ما قلناه أعلاه، ويكشف عن شذوذه الفظيع عن الفطرة الإنسانية الصافية ويبين المسافة التي حباه بها الخالق الكريم.

وفي هذا اللون الأخير من الأدب –أعني الأدب الحق– يكون الالتزام –كما قدمنا– بالرؤية الإسلامية في تناول كل ما يطرحه الواقع الإنساني من معضلات، وليس في هذا الالتزام أي الضرر على الإبداع الأدبي، لأنه لا يحد من حرية المبدعين ولا يفرض عليهم الارتباط بالموضوعات المتعلقة بالعبادات فقط، بل يترك لهم مجال الخوض في أي موضوع من الموضوعات مهما كان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دقيقا وحساسا مفتوحا، لأن الأدب الذي يتناول الواقع من منظور إسلامي حين يعرض للمظاهر الغريبة لا يخلع عليها حلا خيالية رائعة تستهوي القارئ وتفسده، ولا يتلذذ برسم الدقائق والتفاصيل الجنسية التي تهيّج المتلقي وتستثيره، إنما يعالجها في أدب جمّ وحيدة تامة ويوجه القارئ إلى أن يتخذ منها الموقف الذي ينسجم مع روح الإسلام وقيمة وتصوراته، لكن هذه الطريقة في المعالجة لا ترضى النفوس المريضة، فهي تنظر إليها على أنها سجن للعواطف وكبح للشهوات التي يجب -بزعمهم- أن تترك حرة طليقة بدعوى أن "الأدب كالعلم يجب أن يبقى حرّا، ثم إن علم النفس الحديث يبيّن لنا أن المصارحة في المسائل الجنسية خير من المواربة، وأن معظم الأمراض الجنسية تنشأ من المجانبة والابتعاد"[26].

إن ما يؤكده الواقع مخالف في الحقيقة كل المحالفة لما ذهب إليه صاحب هذا الكلام، فالذين يكتبون هذا الأدب ويروجون له يعشون الانحراف والانحلال في حياتهم الخاصة نفسها، فإذا راقبت سلوكهم وجدت فيه صورا شديدة الشبه بما يتحدثون عنه وبما يرسمونه في آثارهم الأدبية من مشاهد خليعة،فلا يخدعنك إذا قولهم: إننا بمثل هذا السفور إنما نهدف إلى تحرير الناس من عقدهم على أساس أن:"ستر الحقائق يجعلها أجذب للنفس من سفورها وإبعاد المسائل الجنسية عن الأدب أو عدم المصارحة في الكلام فيها يجعل الذهن أعلق بها"[27].

هذه المغالطة أبعد ما تكون عن الحق، لأن معالجة هذه المشكلات الحساسة ممكنة بأسلوب مهذب محتشم يترفع فيه الأديب عن السفور المقيت الذي يسعى إلى تأليب الغريزة لا إلى إحداث التوزان فيها، وهدفه تعميق الهوة بين المتلقين وبين القيم العالية والأخلاق النظيفة التي ترقى بالإنسان من الحيوانية إلى المستوى الآدمية بمفهومها الإسلامي.

وما نؤكده في نهاية هذه السطور هو أن أدبنا سيبقى بعيدا عن الإسهام الإيجابي في إعداد الناشئة لمعركة المستقبل ما لم يصبح الأديب عندنا إنسانا إيمانيا قرآنيا، وما لم يتشرب قلبه وجهة نظر الإسلام وأسلوبه الفكري وسلوكه الخلقي، حتى يصبح في طريقة تفكيره ومقصد حياته ومنهج عمله وميزانه لقيم الأشياء وأقدارها متطبعا بطابع الإسلام وهذا لا يتحقق بنظام ثقافي غربي تغريبي إنما بحذافيرها، مهيمنا على الطباع الفردية والعشرة البيتية ومسيطرا على العلوم والفنون والآداب ومعاهد التعليم والتربية ومستوليا على محاكم القانون وميادين السياسية ودواوين الحكومة وإدارتها وإنتاج الثروة وتوزيعها"[28].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونعلم يقينا أن مثل هذا الكلام سيصطدم بمواقف من يتهمون الدعاة إلى البعد يدعو إليها في الثقافة عموما وفي الأدب خصوصا بالرجعية بدعوى أن القيم التي يدعو إليها الإسلام ثابتة تحيل الثقافة إلى عالم مغلق يفتقر إلى الحركة، الأمر الذي يجعل الأعمال الإبداعية الصادرة عن هذه الثقافة غريبة عن الحياة التي يعيش فيها مبدعوها تأسيسا على أن إبداع أدب جديد قادر على التعبير عن الحياة المعاصرة يقتضي تخطي الثبات مهما كان نوعه.

وهنا نذكر بأن من يذهبون هذا المذهب في تناولهم القيم والمفاهيم الإسلامية، إنما يسقطون على الإسلام المفهوم الكنسي الأوربي للدين، ومن المعلوم تاريخيا أن الإسلام لم يدع إلى تعطيل قدرات الإنسان ولا إلى الحجر على الأفكار النيرة القادرة على إثراء الحياة والارتقاء بها خدمة للإنسان نفسه.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة التي تنسب الشيم والمفاهيم الإسلامية إلى الجمود كقوله تعالى:﴿ قل آنظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [29]، وقوله:﴿ قل سيروا في الأرض فآنظروا كيف بدأ الخلق﴾[30].

فالحركة والتطور ليسا سوى أثر من آثار النظر والبحث المستمر اللذين تدعو إليهما هاتان الآيتان وآيات كثيرة أخرى، والإسلام كما يقول محمد قطب "بتشريعاته الخاصة –الاجتماعية والاقتصادية– حال دون ثبات الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأفراد والأسوات، فلا نظام فيه للطبقات كالذي عرفته أوربا ولا "أشراف" بالمولود يظلون يتوارثون الأرض والمال والمركز الاجتماعي والسيادة، وإنما هو مفتوح يستطيع كل فرد فيه بوسيلة أو بأخرى أن يرتفع إلى القمة وأن ينزل إلى الحضيض..."[31].

وعليه فإن صدور الأدب عن قيم ومفاهيم دين شرع للبشرية في يومها وغدها وحث على التجديد الدائم بالبحث والنظر فيما يحيط بالإنسان من أشياء وأحياء ونبذ الجمود والتحجر والركون إلى السكون، لا يمكن أن بحرم الأديب من أن يعيش حاضره في أدبه ويتطلع إلى غد أكثر إشراقا وضياء من هذا الحاضر نفسه.

الهوامش

1– سورة القلم. الآية .4

2– سورة النحل. الآية .90

3– سورة النور. الآية .19

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4- سورة الأحزاب. الآيتان 30-31.

5- سورة الأنعام. الآية 151.

6- سورة الأعراف. الآية 33.

7- سورة ق. الآية 16.

8- سورة إبراهيم. الآية 38.

9- رواه مالك في الموطأ.

10- راجع الجامع الصغير للمناوي والترغيب والترهيب للمنذري.

11- رواه مسلم.

12- سورة الأحزاب. الآية 21.

13- سورة آل عمران. الآية 110.

14- سورة الرعد. الآية 11.

15- قراءة واضحة في رسالة الشعر، د. جودت إبراهيم، الأسبوع الأدبي. ع321، 23 تموز 1992. 16- المرجع نفسه.

17- تيارات النقد الأدبي الحديث، د. بدوي طبانة. ص246.

18- السقوط اللغوي والافتعال الجنسي في رواية: ليليات امرأة. آرق. أ. علال سنقوقة جريدة العصر. ع6 .الاثنين 12نوفمبر .1990

19- المرجع نفسه.

20- الفحص عن أساس الفنون. تأليف تسير شيخ الأرض منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1991. ص 19.

21- العمدة لابن رشيق.

22- سورة الحجرات. الآية 10.

23- سورة الأنفال. الآية 63.

24- العمدة لابن رشيق 1/.27

25- العمدة لابن رشيق 1/.27

26- تيارات النقد الأدبي الحديث. د. بدوي طبانة. ص 225.

27- المرجع نفسه.

28- واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم تأليف أبى الأعلى المودودي. ص 180-181.

29- سورة يونس. الآية 101.

30- سورة العنكبوت. الآية 20.

31- التطور والثبات في حياة البشر. تأليف. محمد قطب. ص12-13.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com